المقدمة

- ١ -

يقول (**نور ثروب فراى**) فى كتابه المهم (**The Anatomy of Criticis**): إذا أردنا أن ندرس الأدب بشكلٍ جاد، فلا بد من الاعتماد على الجهود العلمية. ويُشدد (يورى لوتمان) على أن دراستنا التحليلية للأدب تعتمد اعتمادًا أساسيًّا على كل ما سبق من فكرٍ علمى، أما الأبحاث الجادة القائمة على بلاغة الخطاب وعلم النص سواء فى دراستنا العربية، أو الغربية؛ فإنها تنطلق من قواعدها العلمية المتأصِّلة أيضًا داعية إلى ضرورة الاعتماد على نتائج العلم الحديث.

ولما كانت البلاغة بامتدادها المظلِّى هى شمولية الدرس الأدبى كله، على حدِّ تعبير الناقد الفرنسى (بيير جيرو)، ولما كانت البلاغة فى منظورها الجديد هى رؤية تحليلية وصفية للعمل الأدبى، فإن أىّ اتجاه للبلاغة الجديدة لا بد من مروره من خلال الرؤية العلمية.

- ٢ -

وإذا نظرنا إلى تراثنا العربى سنجد الاهتمام بالربط بين الفكر العلمى والدرس الأدبى واضحًا بل ومهتمًا به اهتمامًا كبيرًا. فالجاحظ قدَّم جهودًا مكثفة ومتنوعة لدراسة الظاهرة الأدبية التى نراها مبثوثة بشكلٍ واعٍ فى حنايا أعماله كلها، كما ينطق كتابه الحيوان بالرؤى العلمية النقدية المتفرِّقة بوعى دقيق، ولعلَّ ما بذله (ابن قتيبة) فى كتابه المعروف «الشعر والشعراء»؛ من دراسة لعملية الإبداع ذاتها تُعَدُّ شاهدًا كبيرًا على الدعوة إلى المزج بين الدرس الأدبى والجهود العلمية.

وأما جهد (ابن جنى) فى هذا المجال فيظهر جليًّا فى كتابه «الخصائص» الذى قام على أصول علمية ومعرفية تدل على وعيه التام بمجالات العلوم المختلفة. ويأتى (عبد القاهر الجرجانى) فيذهل الجميع برؤاه التقدمية التى سبقت عصره كثيرًا كثيرًا؛ حيث مزج الدرس البلاغى برؤية علمية محكمة كانت أساسًا لإبداعه النقدى المميَّز، حيث خبرته الواسعة فى مجالات علمية شتَّى، ويظهر ذلك من خلال نظام تحليله الهندسى الدقيق، وإننا نرى معرفته الجادة للهندسة من خلال إشارته التى علَّق به على قول (الفرزدق):

وما مثله فى النَّاس إلَّا مملكًا أبو أُمِّه حَىُّ أبوه يقاربُهُ

فيقول معلِّقًا: بأن الشاعر هنا كمن رمى بأجزاء تتألَّف منها صورة، ولكن بعد أن يراجع فيها بابًا من الهندسة.

ويأتى (أبو يعقوب السكاكى) فيُشير إلى الجوانب العلمية وسحبها على الدرس البلاغى من خلال موضوعات الكتاب نفسه «مفتاح العلوم»؛ والذى يدل عنوانه على رغبة خاصَّة منه تجاه موضوعات البلاغة، والتى هى مفاتيح العلوم، كما نرى عنايته المميزة بمصطلح «التراكيب»؛ الذى يعتمد - أساسًا على الجانب العلمى؛ خاصَّة «العلوم الفزيائية» -، كما يظهر الجانب العلمى التحليلى أيضًا من خلال شرحه الدقيق لحركة التوليد الكنائى.

وأما (حازم القرطاجنى) فيظهر اهتمامه العميق بالتداخل الفكرى الممتزج بنواحٍ علمية عديدة، ويظهر ذلك واضحًا فى إشارته إلى البلاغة «المعضوضة»، ويقصد بها البلاغة التى تعتمد على الرؤية العلمية الحديثة؛ أى هذه البلاغة القائمة على الإفادة من شتى العلوم.

وأما (الخطيب القزوينى) فقد أشار صراحة إلى إفادته من كتاب «القانون فى الطب» لابن سينا؛ وذلك فى نحته لتعريف ما أسماه بـ«علم المعانى» فيقول عنه: بأنه علم يعرف

به أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق مقتضى الحال. وقيل: يعرف دون (يعلم) رعاية لما اعتبره بعض الفضلاء من تخصيص العلم بالكليَّات والمعرفة بالجزيئات، كما قال صاحب القانون فى تعريف الطب «الطب علم يعرف به أحوال بدن الإنسان».

ويشير (السجلماسى) فى علمه البلاغى المنهجى «المنزع البديع فى تجنيس أساليب البديع» إلى تأثُّره واهتمامه بالعلوم الأخرى التى أعانته على إيجاز هذا العمل المميز، فيقول: فقصدنا من هذا الكتاب الملقب بكتاب «المنزع البديع فى تجنيس أساليب البديع»، إحصاء قوانين أساليب النظوم التى تشتمل على الصناعة الموضوعة لعلم البيان وأساليب البديع وتجنيسها فى التصنيف وتركيب أجزاء الصناعة فى التأليف؛ فالدرس البلاغى الجديد برؤيته العلمية قد أُسِّس على قواعد وأصول الدرس البلاغى القديم، كما يُشير إلى ذلك (رولان بارت) فى كتابه التجديدى «البلاغة القديمة»، وكما يُشير – أيضًا – فى كتابه الجديد «هسهسة اللغة»؛ والذى يدعو فيه إلى الاهتمام الجاد للرؤية العلمية المكوِّنة لفاعلية البلاغة الجديدة.

ومن هنا كان البحث بجهده المتواضع الذى نقدِّمه كرؤية أو محاولة بلاغية جديدة تنطلق من الأصول القديمة، متطلعة إلى آفاق أوسع للبلاغة الجديدة فى دينامياتها التى تتوقف مع عصر من العصور – وبناء على هذه الرؤية جاء البحث فى ثلاث محاور؛ هى :

المحور الأول: جبرية التطور ودينامية الانتقال.

المحور الثانى: قوى الدفع والدينامية الملحة.

المحور الثالث: ميكاتيزم البلاغة وحركية النص الأدبى.

ثم بعد هذه المحاور تأتى المحصلات النهائية مع نموذج معين للدرس التطبيقى.

شوقى على محمد الزهرة